

## عِلْمُ الدِّقَائِيَّاتِ

المحاضرة ١٩: الخلق الدائِّي، الجزء ٢

أ.ر. سي. سبرول

في مُحَاضَرَتِنَا الْمَاضِيَّةِ، تَنَاوَلْنَا مَفْهُومَ الْخَلْقِ الدَّائِيِّ، وَأَنْوَاعَهُ الْمُخْتَلِفَةَ، مِثْلَ التَّوَلُّدِ التَّلْقَائِيِّ، وَالتَّوَلُّدِ التَّلْقَائِيِّ التَّدْرِيجِيِّ، وَتَفَجُّرِ الْكَوْنِ إِلَى حَيِّزِ الْوُجُودِ، إِلَى آخِرِهِ. لَكِنِّي اخْتَمَمْتُ تِلْكَ الْمُحَاضَرَةَ بِقَوْلِي إِنَّهُ فِي الْمَشْهَدِ الْمُعَاصِرِ، يُوصَفُ بِدَيْلِ الْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ عَادَةً مِنْ خِلَالِ احْتِكَامِ إِلَى مَا نُسَمِّيهِ "الْخَلْقُ التَّصَادُفِيُّ". وَأَوْدُ تَنَاوَلُ ذَلِكَ بَعْضَ التَّفْصِيلِ فِي مُحَاضَرَةِ الْيَوْمِ.

ذَكَرْتُ بِشَكْلٍ غَابِرٍ فِي الْمُحَاضَرَةِ السَّابِقَةِ أَنِّي أَلَفْتُ كِتَابًا كَامِلًا عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ. وَسَأُبَيِّنُ أَسْبَابَ ذَلِكَ. وَعُنْوَانُ الْكِتَابِ "Not a Chance"، وَهُوَ تَحْلِيلٌ لِدَوْرٍ وَوَضِيفَةٍ الْمُضَادَّةِ فِي عِلْمِ الْكُونِيَّاتِ الْحَدِيثِ وَنَشْأَةِ الْكَوْنِ. وَمَا حَفَّزَنِي عَلَى تَأْلِيفِ هَذَا الْكِتَابِ هُوَ قِرَاءَتِي لِلْعَدِيدِ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ لِأَنَاسٍ فِي الْمُجْتَمَعِ الْعِلْمِيِّ، فِي مُحَاوَلَةٍ مِنْهُمْ لِتَفْسِيرِ بَعْضِ مِنْ أَصْعَبِ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي يُمَكِّنُ لِعَالَمِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ التَّعَامُلُ مَعَهَا - وَهِيَ أُمُورٌ تَجْرِي فِي الْمُخْتَبَرِ، وَتَتَعَلَّقُ بِالتَّجَارِبِ، وَبِالْجُزْئِيَّاتِ دُونَ النَّرِيَّةِ، وَالضُّوْءِ، وَمِيكَانِيكَا الْكَمِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَأَشْرْتُ فِي هَذَا الْكِتَابِ، عَلَى سَبِيلِ إِخْلَاءِ الْمَسْئُولِيَّةِ، إِلَى أَنِّي لَسْتُ عَالِمٌ فِيزِيَاءَ، أَوْ خَبِيرًا فِي فِيزِيَاءِ الْكَمِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ. فَلَسْتُ أَجْرُؤُ عَلَى تَقْوِيمِ اكْتِشَافَاتِ الْفِيزِيَاءِيِّينَ مِنْ تَجَارِبِهِمْ. وَلَسْتُ أَحَاوِلُ إِعَاقَةَ اسْتِمْرَارِيَّةِ تِلْكَ التَّجَارِبِ فِي سَعْيِهَا إِلَى التَّوَسُّيعِ مِنْ إِدْرَاكِتِنَا لِلْوَاقِعِ. فَخِلَافِي مَعَ الْفِيزِيَاءِيِّينَ لَا يَتَعَلَّقُ بِتَجَارِبِهِمْ، بَلْ بِطَرِيقَةِ تَعْبِيرِهِمْ عَنْ نَتَائِجِ تَجَارِبِهِمْ، وَمَا يَسْتَنْتِجُونَهُ مِنَ الْمُعْطِيَّاتِ الَّتِي قَامُوا بِالْعَمَلِ عَلَيْهَا.

لَا يَلْزَمُنِي أَنْ أَكُونَ فِيزِيَاءِيًّا كَيْ أَتَمَكَّنَ مِنْ تَحْلِيلِ مُحتَوَى وَدَلَالَةِ التَّصْرِيحَاتِ وَمَدَى تَمَاسُكِهَا. فَهَذَا تَخْصُصُ الْفَلَسَافَةِ، الَّذِي يُقَدِّمُونَ تَحْلِيلًا مَنْطِقِيًّا لِمَدَى صِحَّةِ التَّصْرِيحَاتِ. وَعِنْدَمَا يُعَبِّرُ الْفِيزِيَاءِيُّونَ عَنْ نَظَرِيَّاتِهِمْ بِكَلَامٍ بِلَا مَعْنَى، يَكُونُ الْوَقْتُ قَدْ حَانَ لِيُطْلَقَ الْفَلَسَافَةُ صَافِرَةً الْإِنْدَارِ، قَائِلِينَ: "لَسْنَا نَفْهَمُ مَا تَقُولُونَهُ، لِأَنَّ كَلَامَكُمْ مُتَافٍ لِلْعَقْلِ وَغَيْرُ مَفْهُومٍ. رَجَاءً، ابْدَأُوا مِنْ جَدِيدٍ، وَحَاوِلُوا إِعَادَةَ صِيَاغَةِ تَصْرِيحَاتِكُمْ". أَوْ رَبَّمَا يَكْتَفُونَ بِالْقَوْلِ: "فَقَطْ قَوْلُوا إِنَّكُمْ تَجْهَلُونَ عَمَّ تَتَحَدَّثُونَ، لِأَنَّ أَسْلُوبَ حَدِيثِكُمْ يُظْهِرُ أَنَّكُمْ عَلَى الْأَقْلَ لَا تَعْرِفُونَ كَيْفَ تَتَحَدَّثُونَ. رَبَّمَا سَيَعَكِسُ ذَلِكَ جَهْلًا أَكْبَرَ، لَكِنَّهُ عَلَى الْأَقْلَ سَيَعَكِسُ جَهْلًا يَتَعَلَّقُ بِكَلَامٍ مَفْهُومٍ".

وَفِي مُقَدِّمَةِ هَذَا الْكِتَابِ، أَشْرْتُ إِلَى آرْتِرِ كَيْسَلِرِ الَّذِي قَالَ: "مَا دَامَتِ الْمُضَادَّةُ تَحْكُمُ، فَإِنَّ فِكْرَةَ اللَّهِ قَدْ عَفَا عَلَيْهَا الزَّمَنُ". وَتَنَاوَلْتُ هَذَا الْاِقْتِبَاسَ لِأَنَّي رَأَيْتُ أَنَّ كَيْسَلِرَ طَرَحَ فِكْرَةً مُهِمَّةً لِلْغَايَةِ. فَمَا دَامَتِ الْمُضَادَّةُ تَحْكُمُ، فَإِنَّ فِكْرَةَ اللَّهِ قَدْ عَفَا عَلَيْهَا الزَّمَنُ. أَتَّفِقُ مَعَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ إِلَى حَدِّ مَا. لَكِنَّ اعْتِرَاضِي الْوَحِيدَ رَبَّمَا يَكُونُ مُعَقَّدًا بَعْضَ

الشيء، وهو أنني كنت أتمنى أن يتمادى كيسلر بتصريحه أكثر قليلاً، لأنني لست أظن أنه من الضروري أن تحكم المصادفة حتى يعفو الزمن عن فكرة الله. بل أعتقد أن كل ما يجب إثباته حتى يعفو الزمن عن فكرة الله هو وجود المصادفة، أي الوجود الحقيقي في الواقع لما نسميه بالمصادفة. فلو تمتعت المصادفة بأية سلطة، ستخلع الله عن عرشه تماماً. وكل ما يلزمها لذلك هو فقط أن توجد. وكتبت أن مجرد وجود المصادفة كافٍ لخلع الله عن عرشه الكوني. فليست المصادفة بحاجة إلى أن تحكم أو تسود. ففقط إذا وجدت كخادمة ضعيفة ومتواضعة، ستجعل الله ليس فقط فكرة عفا عليها الزمن، بل أيضاً بلا أذى دور. والفرضية الأساسية التي أقدّمها في هذا الكتاب هي أنه في النهاية، لا وجود للمصادفة. وأكبر خرافة في الميثولوجيا الحديثة هي خرافة المصادفة. وهذا ما أحاول الوصول إليه هنا.

وما حفّزني على تأليف هذا الكتاب في المقام الأول هو حديث دار بيني وبين أستاذ بكلية هارفارد للدراسات العليا في فلسفة العلوم، فيما كنا نتحدث معاً عن أصل الكون، فرفض نظرية الخلق، فسألته: "حسناً، ومن أين جاء الكون؟" فأجاب: "وجد العالم نتيجة مصادفة". وأضاف: "خلق الكون بالمصادفة". فنظرت إليه وقلت: "هل خلق العالم بالمصادفة؟" فأجابني: "أجل". فمددت يدي في جيبتي وأخرجت ربع دولار، وقذفته في الهواء، ثم التقطته، وقلبتُه، فكان طرّة، وقلت: "أنا الآن قد فتت العملة في الهواء. فما احتمالات سقوط هذه العملة طرّة أو نقشاً، إذا لم تسقط على جانبها؟" ففهم ما أعنيه وقال: "نسبة مئة بالمئة، لأنه لا يوجد سوى خيارين - إما الطرّة أو النقش. إذن، لا بد من أن تكون إما هذا أو ذلك". فقلت: "حسناً، حسابياً، ما احتمالات سقوطها طرّة؟" فأجاب: "خمسون بالمئة". فقلت: "رائع". ثم أضفت: "والآن دعني أطرح عليك سؤالاً: ما مدى تأثير المصادفة في سقوطها طرّة أو نقشاً؟ بتعبير آخر، إذا تحكمتنا في التجربة بالكامل، أي إذا وضعنا العملة على محرك، وبدأنا بوضعية الطرّة في كل مرة، وأجرينا التجربة في فراغ، حيث تكون القوة التي تمارس على تلك العملة متساوية تماماً في كل مرة. ثم صعدت إلى الارتفاع نفسه في الفراغ في كل مرة، وكان عدد مرات دورانها في الفراغ متساوياً في كل مرة، ثم هبطت في المكان نفسه في كل مرة، ولم تكن لدينا أية متغيرات من قبيل ما إذا كنا سنقلبها أو نلتقطها هنا أو هنا أو هنا أو هنا، أو أي من تلك المتغيرات، فهل ستتمكن من زيادة نسبة هبوطها طرّة إلى أكثر من خمسين بالمئة؟" فأجابني: "بالتأكيد". فقلت: "حسناً، لأننا ندرك أن العوامل السببية المساهمة في التوصل إلى ما إذا كانت العملة ستهبط طرّة أو نقشاً لا تمت بصلة لقوة خرافية تدعى بالمصادفة، لكنها متصلة حتماً بالعوامل التي ذكرتها، أي إن كنا بدأنا بطرّة أو نقش، والقوة التي يمارسها الإبهام عليها، ومدى كثافة الجو، والارتفاع الذي تصل إليه، وعدد مرات دورانها في الهواء، والتقاطنا لها هنا أم هنا أم هنا، ثم بعد أن نلتقطها، إن كنا ننظر إليها في الحال أم نقلبها. كل تلك المتغيرات يمكن أن تؤثر في نتيجة التجربة. لكننا نعلم أنه حتى على الرغم من كل تلك الأمور التي لا وقت لدينا لندرسها

في كُلِّ مَرَّةٍ، لَا تَزَالُ الْإِحْتِمَالَاتُ تُخْبِرُنَا بِأَنَّهُ فِي النَّهَائِيَةِ، يَجِبُ أَنْ يَتَحَقَّقَ احْتِمَالُ مِثْلَيْنِ، إِمَّا طَرَةً أَوْ نَفْسًا، وَلِهَذَا نَقُولُ إِنَّ نِسْبَةَ الْإِحْتِمَالِ هِيَ خَمْسُونَ بِالْمِئَةِ.

مَا مِنْ خَطْبٍ فِي كَلِمَةٍ "مُضَادَفَةٍ". فَهِيَ كَلِمَةٌ مَفْهُومَةٌ تَمَامًا حِينَ نَسْتَخْدِمُهَا لَوْصِفِ احْتِمَالَاتٍ حِسَابِيَّةً. وَهِيَ مُرَادِفَةٌ لِكَلِمَةِ "احْتِمَالَاتٍ" (odds). فَمَا احْتِمَالَاتُ (odds, chances) حَدُوثِ أَمْرٍ مَا؟ بَلْ وَمِنَ الشَّائِعِ أَنْ نَسْتَخْدِمَ كَلِمَةَ "مُضَادَفَةٍ" لِلإِشَارَةِ إِلَى "لِقَاءَاتٍ دُونَ تَخْطِيطٍ".

أَتَذَكَّرُ ذَاتَ مَرَّةٍ أَنِّي كُنْتُ مُسَافِرًا بِالْقِطَارِ مِنْ أَوْرُلَانْدُو إِلَى كَالِيفُورْنِيَا. وَفِي تِلْكَ الرَّحَلَةِ، كَانَ عَلَيَّ الدَّهَابُ إِلَى وَاشِنْتُنْ الْعَاصِمَةِ أَوَّلًا. وَمِنْ وَاشِنْتُنْ، كَانَ عَلَيَّ التَّوَقُّفُ لِبَعْضِ الْوَقْتِ، ثُمَّ اسْتِقْلَالُ الْقِطَارِ مُجَدِّدًا لِلدَّهَابِ إِلَى شِيكَاغُو. فَحَدَّثْتُ أَنْ تَرَجَّلْتُ مِنَ الْقِطَارِ فِي الصَّبَاحِ لِلتَّوَقُّفِ لِنَحْوِ ثَمَانِي سَاعَاتٍ، فِي وَقْتٍ كَانَ فِيهِ زِحَامٌ كَبِيرٌ مِنَ الرُّكَّابِ الْمَحَلِّيِّينَ الدَّاهِبِينَ مِنْ صَوَاحِي شِيكَاغُو إِلَى وَسْطِ مَدِينَةِ شِيكَاغُو. وَكَانَ عَلَيَّ الْبَقَاءُ فِي الْمَدِينَةِ لِمُدَّةِ ثَمَانِي سَاعَاتٍ، ثُمَّ الْعُودَةُ إِلَى مَحَطَّةِ الْقِطَارِ لِاسْتِقْلَالِ الْقِطَارِ إِلَى لُوسْ أَنْجَلُوسْ. وَتَصَادَفَ أَنِّي اسْتَفْلَلْتُ الْقِطَارَ فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ فِتْرَةٍ بَعْدَ الظُّهْرِ، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ الْقِطَارَاتُ الْمَحَلِّيَّةُ عَائِدَةً إِلَى وُجْهَتِهَا. فَزَلْتُ مِنَ الْقِطَارِ فِي شِيكَاغُو صَبَاحًا، وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَعْبُرُ ذَلِكَ الْمَبْنَى الَّذِي يَعْجُ بِمُحْشُودٍ مِنَ الْبَشَرِ، نَظَرْتُ أَمَامِي، وَفَجَأَةً، رَأَيْتُ صَدِيقًا لِي لَمْ أَلْتَقِ بِهِ مُنْذُ عَشْرِ سَنَوَاتٍ. "آل، كَيْفَ حَالُكَ؟" وَدَارَ بَيْنَنَا حَدِيثٌ رَائِعٌ. فَقَالَ لِي: "مَاذَا تَفْعَلُ هُنَا؟" فَقُلْتُ: "تَصَادَفَ مُرُورِي بِالْمَدِينَةِ، وَسَأَنْتَظِرُ هُنَا قِطَارِي الثَّلَاثِي". ثُمَّ بَعْدَ ثَمَانِي سَاعَاتٍ، عُدْتُ إِلَى مَحَطَّةِ الرُّكَّابِ نَفْسِهَا. وَمُجَدِّدًا، كَانَ هُنَاكَ آلافُ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَتَرَاخَمُونَ لِيَسْتَقْبِلُوا الْقِطَارَاتِ، وَفَجَأَةً التَّقَيْتُ بِصَدِيقِي مُجَدِّدًا. مَا احْتِمَالَاتُ حَدُوثِ ذَلِكَ؟

نُسَمِّي ذَلِكَ "تَجْرِبَةً تَصَادُفِيَّةً"، وَنُسَمِّيهِ "لِقَاءَ دُونَ تَخْطِيطٍ"، لِأَنَّنا لَمْ نَلْتَقِ عَمْدًا. فَحِينَ غَادَرْتُ فُلُورِيدَا، لَمْ أُحْطِظْ أَوْ أَعْتَمِدَ الْإِلْتِقَاءَ بِصَدِيقِي آلَ فِي أَرْوَقَةِ مَحَطَّةِ شِيكَاغُو. وَعِنْدَمَا غَادَرَ هُوَ مَنْزِلَهُ فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ، لَمْ يَكُنْ يَنْوِي أَنْ يَلْتَقِيَ بِي. لَكِنْ إِنْ جَارَ التَّعْبِيرُ، اصْطَدَمَ أَحَدُنَا بِالْآخَرِ فِي لِقَاءٍ تَصَادُفِيٍّ. لَكِنَّ الْمُضَادَفَةَ لَا تُفَسِّرُ سَبَبَ حَدُوثِ ذَلِكَ، أَيْ إِنَّ الْمُضَادَفَةَ لَمْ تَنْسَبْ فِي ذَلِكَ. فَقَدِ التَّقِينَا لِأَنَّهُ تَصَادَفَ تَوَاجُدُنَا فِي الْمَكَانِ نَفْسِهِ وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لِأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، تَلَاقَتْ مَعًا فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ. إِذَنْ مُجَدِّدًا، كَلِمَةُ مُضَادَفَةٍ كَلِمَةٌ مَشْرُوعَةٌ تَمَامًا حِينَ نَسْتَخْدِمُهَا لَوْصِفِ اللِّقَاءَاتِ غَيْرِ الْمُتَعَمَّدَةِ، أَوْ لَوْصِفِ احْتِمَالَاتٍ حِسَابِيَّةً.

لَكِنَّ مَا حَدَّثَ فِي اللَّعَةِ الْحَدِيثَةِ هُوَ أَنَّ كَلِمَةَ مُضَادَفَةٍ اتَّخَذَتْ بِشَكْلِ غَيْرِ مَلْحُوظٍ مَعْنَى أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْإِحْتِمَالَاتِ الْحِسَابِيَّةِ، وَنُسِبَتْ إِلَيْهَا قُوَّةٌ مُسَبَّبَةٌ. وَعِنْدَمَا تَحَدَّثْتُ مَعَ ذَلِكَ الْأُسْتَاذِ مِنْ هَارْفَارْدِ، وَقُلْتُ لَهُ: "هَلْ أَدْرَكْتُ مِنْ خِلَالِ تَشْبِيهِ الْعُمَلَةِ أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ الَّذِي نُسَمِّيهِ بِالْمُضَادَفَةِ لَمْ يُمَارَسْ آيَةً قُوَّةً يُمَكِّنُ أَنْ تَجْعَلَ الْعُمَلَةَ تَسْفُطُ طَرَةً؟" فَاتَّفَقَ

مَعِي. فَعِنْدَمَا قَدَّمْتُ لَهُ ذَلِكَ الْمِثَالَ التَّوْضِيحِيَّ البَّسِيطَ، مُسْتَخْدِمًا اللُّغَةَ العَادِيَّةَ، حَبَطَ رَأْسُهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: "أَظُنُّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي أَنْ أَقُولَ إِنَّ الكَوْنَ خُلِقَ بِالمُصَادَفَةِ". فَقُلْتُ: "هَذَا صَحِيحٌ"، لِأَنَّهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ الأَنْطولوجِيَا (عِلْمُ الأَنْطولوجِيَا مَعْنَاهُ دِرَاسَةُ وُجُودِ وَجَوْهَرِ الوَاقِعِ، أَي كَيْنُونِيَّةِ)، كَمَا قُلْتُ لِصَدِيقِي مِنْ هَارْفَارْدَ، الحَالَةُ الوُجُودِيَّةُ لِلْمُصَادَفَةِ هِيَ صِفْرٌ. فَلَيْسَ لِلْمُصَادَفَةِ أَيُّ وُجُودٍ. لَيْسَتْ المُصَادَفَةُ شَيْئًا يَعْمَلُ وَيُؤَثِّرُ فِي أَشْيَاءٍ أُخْرَى، لَكِنَّهَا مُجَرَّدُ مَفْهُومٍ عَقْلِيٍّ يُشِيرُ إِلَى اِحْتِمَالَاتٍ حِسَابِيَّةٍ، وَلَيْسَ لَهَا وُجُودٌ فِي ذَاتِهَا. وَلَيْسَتْ لَهَا كَيْنُونَةٌ.

هَذِهِ الطَّبْشُورَةُ لَهَا وُجُودٌ. وَوُجُودُهَا قَادِرٌ أَنْ يَشْعَلَ الفِيزِيَايِيِّينَ وَالفَلَسِيفَةَ لِقُرُونٍ، لِمَحَاوَلَةِ فَهْمِ الشَّكْلِ الأَسَاسِيِّ لِجَوْهَرِ هَذِهِ الطَّبْشُورَةِ. لَكِنَّنَا نَتَّفِقُ مَعًا عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ لِأَشْيَاءٍ، لَكِنَّ تِلْكَ الطَّبْشُورَةُ هِيَ شَيْءٌ. وَتَدَكَّرُوا أَنَّنِي قُلْتُ إِنَّ أبْسَطَ حُجَّةٍ تُؤَيِّدُ وُجُودَ اللهِ هِيَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مَوْجُودًا، أَوْ إِذَا كَانَ أَيُّ شَيْءٍ مَوْجُودًا، أَوْ إِذَا كَانَ أَيُّ شَيْءٍ يَتَمَتَّعُ بِحَالَةٍ وُجُودِيَّةٍ، فَإِنَّا نَصِيرُ مَدْفُوعِينَ بِمُحْكَمِ الضَّرُورَةِ إِلَى اسْتِنتَاجِ وُجُودِ كَائِنٍ أَرِيٍّ ذَاتِي الوُجُودِ. لَكِنَّنِي اسْتَبْتَقْتُ الأُمُورَ هُنَا. فَمَا أَقُولُهُ هُوَ إِنَّ لِهَذِهِ الطَّبْشُورَةَ حَالَةَ وُجُودِيَّةٍ، أَي إِنَّهَا شَيْءٌ، لَهُ وُجُودٌ. فَهِيَ حَقِيقَةٌ وَلَيْسَتْ وَهْمًا. فَإِنِّي أَتَمَتَّعُ بِحَالَةٍ وُجُودِيَّةٍ. أَنَا كَائِنٌ. لَسْتُ الكَائِنَ الأَسْمَى، أَو الكَائِنَ الإِلَهِيَّ، فَإِنِّي بَشَرٌ. لَكِنَّنِي شَيْءٌ وَلَيْسَ لِأَشْيَاءٍ. لَكِنَّ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالمُصَادَفَةِ، قُلْتُ لِصَدِيقِي مِنْ هَارْفَارْدَ إِنَّهُ لَيْسَ لِلْمُصَادَفَةِ وُجُودٌ. وَلِأَنَّ لَيْسَ لَهَا وُجُودٌ، فَهِيَ إِذَنْ بِلا قُوَّةٍ، لِأَنَّ مَا هُوَ بِلا وُجُودٍ، لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِالضَّرُورَةِ بِلا قُوَّةٍ، لِأَنَّهُ كَيْ تُوَجَدَ القُوَّةُ أَوْ تَعْمَلُ، لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ قُوَّةَ شَيْءٍ. فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُؤَلَدَ قُوَّةٌ مِنْ لَاشَيْءٍ، تَمَامًا كَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَأْتِيَ أَشْيَاءٌ مِنْ لَاشَيْءٍ. فَالقُوَّةُ أَوْ العَمَلُ يَسْتَلْزِمَانِ وُجُودَ عَامِلٍ، مِثْلَمَا قَالَ دِيكَارْتُ إِنَّ التَّفَكِيرَ يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ مُفَكِّرٍ.

إِذَنْ، الفُرْضِيَّةُ الَّتِي سَأَقْدِمُهَا لَكُمْ - وَهَذَا مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ جَمِيعُ الفَلَسِيفَةِ وَالْعُلَمَاءِ عِبْرَ العُصُورِ - هِيَ أَنَّ كَلِمَةَ مُصَادَفَةٍ أَصْبَحَتْ كَلِمَةً تَصِفُ جَهْلَنَا. فَإِنَّا نُنْحِمُ كَلِمَةَ مُصَادَفَةٍ فِي المُعَادَلَةِ حِينَ نَجْهَلُ مَا يَحْدُثُ مِنْ حَوْلِنَا. فَحِينَ نُحْفِقُ فِي القِيَامِ بِمَا عَلَيْنَا مِنْ تَحْلِيلٍ، وَالتَّوَصُّلِ إِلَى حُجَجٍ مُقْنَعَةٍ وَقَوِيَّةٍ، نُنْسِبُ الأُمُورَ إِلَى المُصَادَفَةِ، أَوْ إِلَى قُوَّةِ المُصَادَفَةِ. رَبَّمَا تَقُولُونَ لِي: "لَكِنَّ مَهْلًا يَا أَرْ. سِي، نَحْنُ نَلْعَبُ أَلْعَابَ الحِظِّ، حَيْثُ نُخَلِّطُ الأَوْرَاقَ عَشْوَائِيًّا، وَنُوزِّعُ، وَنُؤَرِّعُ، وَنُؤَرِّعُكَ تَحْدِيدَ اِحْتِمَالَاتِ إِحْصَائِيَّةٍ بِنَاءً عَلَى الأَوْرَاقِ الَّتِي تُوزَّعُ عَلَيْكَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ. هَذَا صَحِيحٌ. وَأَنَا أُحِبُّ لَعِبَ الوَرَقِ. وَدَرَسْتُ الإِحْتِمَالَاتِ الحِسَابِيَّةَ فِي مُخْتَلِفِ أَلْعَابِ الوَرَقِ. وَحِينَ أَلْعَبُ، أَلْعَبُ وَفَقًا لِلاِحْتِمَالَاتِ. وَبِغَيْرِ عِلْمٍ بِالفِعْلِ أَنْ أَعْرِفَ الإِحْتِمَالَاتِ الحِسَابِيَّةَ فِي الأَلْعَابِ الَّتِي تُسَمَّى أَلْعَابَ الحِظِّ. لَكِنَّهَا لُعْبَةٌ حِظٌّ لِأَنَّنِي لَا أَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ تَوَزِيعِ تِلْكَ الأَوْرَاقِ. لَكِنَّ سَبَبَ حُصُولِي عَلَى أَوْرَاقٍ مُعَيَّنَةٍ أَثْنَاءَ تَوَزِيعِ الوَرَقِ، يَعْتَمِدُ عَلَى الكَيْفِيَّةِ الَّتِي رُتِبَتْ بِهَا الأَوْرَاقُ عِنْدَ خَلْطِهَا لِلْمَرَّةِ الأُولَى، وَالكَيْفِيَّةِ الَّتِي رُتِبَتْ بِهَا عِنْدَ خَلْطِهَا لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَّةِ، وَطَرِيقَةَ تَوَزِيعِهَا، وَالتَّسْلُسِ الَّذِي أَتْبَعَ أَثْنَاءَ تَوَزِيعِهَا، إِلَى آخِرِهِ. لَمْ تَكُنِ المُصَادَفَةُ شَبَحًا غَيْرَ مَنْظُورٍ تَحْكَمُ فِي يَدِ المُوَزِّعِ، وَتَسَبَّبَ فِي تَرْتِيبِ الأَوْرَاقِ فِي تَسْلُسِلٍ

مُعَيَّنٍ، لِأَنَّ لَا وُجُودَ لِمِثْلِ هَذِهِ الْقُوَّةِ غَيْرِ الْمَنْظُورَةِ الَّتِي تُدْعَى بِالْمُضَادَّةِ، لِأَنَّهُ مُجَدِّدًا لَيْسَ لِلْمُضَادَّةِ وُجُودٌ. وَبِمَا أَنَّهَا بِلا وُجُودٍ، فَهِيَ بِلا قُوَّةٍ.

وَهَكَذَا، قُلْتُ مُجَدِّدًا لِصَدِيقِي: "لَيْسَتْ الْمُضَادَّةُ شَيْئًا يُمَكِّنُ أَنْ يُمَارَسَ قُوَّةً. أَتَوَافِقُنِي الرَّأْيُ؟" وَأَخِيرًا أَجَابَنِي: "أَجَلٌ، لَيْسَتْ الْمُضَادَّةُ شَيْئًا". وَالآنَ دَعُونِي أُصِغُ ذَلِكَ بِأَسْلُوبٍ مُخْتَلِفٍ بَعْضُ الشَّيْءِ. الْمُضَادَّةُ لَيْسَتْ شَيْئًا. أَوِ الْمُضَادَّةُ هِيَ لَا شَيْءٌ. وَحِينَ تَقُولُ إِنَّ الْكُونَ خُلِقَ بِالْمُضَادَّةِ، فَإِنَّكَ تَقْصِدُ مَنْطِقِيًّا أَنَّ الْكُونَ خُلِقَ بِلا شَيْءٍ. وَبِذَلِكَ، لَسْتَ فَقَطْ تَنْسُبُ قُوَّةً إِلَى الْمُضَادَّةِ، لَكِنَّكَ تَنْسُبُ إِلَيْهَا أَسْمَى قُوَّةٍ يُمَكِّنُ تَصَوُّرُهَا، بِقَوْلِكَ إِنَّهَا قَادِرَةٌ لَيْسَ فَقَطْ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مَا، بَلْ عَلَى إِجْرَادِ الْوَاقِعِ كَكُلِّ. وَهَذَا مَا أَوْدُ قَوْلَهُ. فَهَذَا الْمَفْهُومُ، بَعْدَ دَقَائِقٍ مِنَ التَّحْلِيلِ الْمَنْطِقِيِّ، يَكْشِفُ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ مُنَافٍ لِلْعَقْلِ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ أَسْوَأُ أَنْوَاعِ الْخُرَافَاتِ. لَكِنَّ إِذَا عَلَّفْتَهُ بِلُغَةٍ فَحَمَّةٍ، وَعَبَّرْتَ عَنْهُ بِلُغَةِ الْعِلْمِ، كَمَا حِينَ ظَنَّ النَّاسُ فِيمَا مَضَى أَنَّ يُمْكِنُهُمْ تَحْوِيلَ الْمَعْدِنِ إِلَى ذَهَبٍ، فَقَدَّمُوا تِلْكَ النَّظَرِيَّاتِ فِي شَكْلِ مُصْطَلَحَاتٍ عِلْمِيَّةٍ، فَحَظِيَّتْ بِالْإِحْتِرَامِ لِقُرُونٍ، هَكَذَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُضْفِي عَلَى الْخُرَافَاتِ إِحْتِرَامًا إِذَا عَلَّفْتَهَا بِلُغَةٍ أَكَادِيمِيَّةٍ كَافِيَّةٍ. لَكِنَّ مَهْمَا جَمَلْتَ كَلَامَكَ، حِينَ تَنْسُبُ آيَةَ قُوَّةٍ إِلَى الْمُضَادَّةِ، تَنْطِقُ بِهَرَاءٍ، لِأَنَّ الْمُضَادَّةَ هِيَ لَا شَيْءٌ. وَلَوْ ظَنَنْتَ أَنَّهَا شَيْءٌ، سَيَكُونُ عَلَيَّ أَنْ أَسْأَلَكَ: وَمَا هِيَ؟ وَكَمْ تَرِنُ؟ هَلْ لَهَا أَبْعَادٌ حَقِيقِيَّةٌ أَمْ إِنَّهَا غَيْرُ مَلْمُوسَةٍ؟ هَلْ هِيَ حَقْلٌ طَاقَةٌ؟ هَلْ هِيَ كَهْرٌ وَمَعْنَاطِيْسِيَّةٌ؟ مَا مَصْدَرُ هَذِهِ الْقُوَّةِ؟ فَحِينَ تَقُولُ إِنَّ أَمْرًا مَا مُضَادَّةٌ، فَإِنَّكَ تَعْنِي "لَا أَعْلَمُ".

حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنْ أَهَمِّ مُؤَيِّدِي الْمُضَادَّةِ، نَجِدُ أَنَسًا مِثْلَ نِيلِزُ بُوْر، الَّذِي تَبَنَّى شِعَارَ "Contraria sunt complimentaria"، وَمَعْنَاهُ "التَّنَاقُضَاتُ تُكْمِلُ بَعْضَهَا بَعْضًا". وَكَانَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِتَأْيِيدِ كَلَا طَرَفِي التَّقْيِضِ، مِمَّا أَثَارَ جُنُونَ أَيْنِشْتَاينِ، فَقَالَ: "مَا أَنْ يَبْدَأَ نِيلِزُ فِي التَّحَدَّثِ عَنْ تَأْيِيدِ طَرَفِي التَّقْيِضِ، يَتَوَقَّفُ لَيْسَ فَقَطْ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَنْطِقِيًّا، بَلْ عَنْ أَنْ يَكُونَ عِلْمِيًّا أَيْضًا".

وَيُظْهِرُ مَبَادِي الرِّيْبَةِ لَهَا يُزْنِرُغُ، يُمَكِّنُ التَّعْبِيرُ عَنْ ذَلِكَ بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ. يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ: "نَحْنُ نُجْرِي التَّجَارِبَ عَلَى الْجَزْئِيَّاتِ دُونَ الذَّرِّيَّةِ، وَلَسْنَا نَعْلَمُ سَبَبَ سُلُوكِهَا هَكَذَا". يَبْدُو أَنَّ هَذَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ التَّجَارِبَ أَثَرَتْ فِي نَتَائِجِهَا. وَيَبْدُو أَنَّ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ تَسْلُكُ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مَنْطِقِيَّةٍ تَمَامًا. فَحِينَ يَقُولُ الْعَالِمُ: "لَسْتُ أَعْلَمُ سَبَبَ سُلُوكِ الْجَزْئِيَّاتِ دُونَ الذَّرِّيَّةِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي تَجَارِبِنَا، وَلَا شَيْءٍ مِنْ نَمَازِجِنَا الْعِلْمِيَّةِ مُؤَهَّلٌ لِتَفْسِيرِ هَذَا السُّلُوكِ الَّذِي يَتَعَدَّرُ تَفْسِيرُهُ تَمَامًا. أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يَجْدُثُ، وَالْأَحْظُ جَيِّدًا، وَأَجْرِي عَلَيْهِ تَجَارِبَ، لَكِنِّي لَا أَعْرِفُ السَّبَبَ"، يَسْأَلُكَ بِهَذَا سُلُوكًا مُلَائِمًا لِلْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ. فَعِنْدَمَا يَصْطَلِحُ بِمَحْدُودِيَّةِ مَعْرِفَتِهِ، يَقُولُ: "لَا أَعْلَمُ".

يَجِبُ فِعْلُ ذَلِكَ فِي عِلْمِ الْأَحْيَاءِ، وَفِي الْكِيمِيَاءِ، وَالْفِيزِيَاءِ، وَالْفَلَسَفَةِ، وَعِلْمِ اللَّاهُوتِ. فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ هِيَ السَّمَةُ الَّتِي تُمَيِّزُ أَيَّ بَاحِثٍ حَقِيقِيٍّ عَنِ الْحَقِيقَةِ. لَكِنَّ قَوْلَنَا "لَا أَعْلَمُ" يُخْتَلِفُ تَمَامَ الْإِخْتِلَافِ عَنْ قَوْلِنَا: "لَا شَيْءٌ".

سَبَبَ هَذِهِ النَّتِيجَةَ، لِأَنَّكَ كَيْ تَعْرِفَ ذَلِكَ، سَيَتَحَتَّمُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ كُلَّ قُوَّةٍ يُمَكِّنُ تَصَوُّرَهَا مَوْجُودَةً دَاخِلَ الْكَوْنِ أَوْ خَارِجَهُ. وَالْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ لِاِكْتِسَابِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ هِيَ أَنْ تَكُونَ كُلِّيَّ الْعِلْمِ. وَلِذَا، أَظُنُّ، عَلَى سَبِيلِ التَّعْقُّلِ، أَنَّنَا يَجِبُ أَنْ نَتَوَقَّفَ عَنِ الْقَوْلِ بِأَنَّ لَاشَيْءَ يُسَبِّبُ شَيْئًا، لِأَنَّ هَذَا تَصْرِيحٌ بِلَا مَعْنَى، وَخُرَافِيٌّ. فَلَيْسَ فَقَطْ لَاهُوتًا خَاطِئًا، وَإِنَّمَا أَيْضًا عِلْمٌ خَاطِئٌ، أَنْ نَنْسَبَ الْخَلْقَ الذَّائِي إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَحْتَ أَيِّ مُسَمًّى.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَنْزُولُ هُوَ مُؤَسِّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيْرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو ( St. Andrews Chapel ) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسٍ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ ( Reformation Bible College ) وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهُوتِيُونَ" و"أَدَهْسَنِي الْأَلَمُ".